«وقد كان الطفل روحا مرهفا، ناعما أصلا، حنونا، كسر قلبه وصدع روحه، وصدم حياته زوج أمه...»[١].

يقول لك حسن البحيري: «لقد نشأت يا صاحبي كالعوسجة البرية»[٢]، وفي ذهنه صور من حياة اليتم والتشرد وملاجىء الأيتام، والأعمال المتواضعة التي فرضتها عليه حياته القاسية. وربما كان عمله كأجير فران، في فترة من فترات طفولته، من أضمن الأعمال توفيرا لخبز يومه. وكان أول عمل رسمي له، وقد بلغ سن الشباب، عامل تنظيفات في محطة سكة حديد فلسطين بحيفا. لقد كان حسن في معظم أيام طفولته يخلط بين تخطف الرغيف بعرق جبينه، وبين تخطف الحروف الأولى من بعض الكتاتيب والمدارس الصغيرة بحيفا، ولكم ظل يتدرب على جمع هذه الحروف او تفكيكها على اللافتات في مدينة حيفا، وعلى قصاصات الجرائد وعلب التبغ الفارغة التي كان شغوفا بالتقاطها كي يتدرب بها وعليها على تفكيك أبجديته الأولى وتوصيلها. هذه الوسيلة التي أقدرته بالنتيجة، على معرفة معالم اللغتين الانكليزية* والعبرية إلى جانب اتقانه اللغة العربية.

يقول بعض الخبيرين بمناطق فلسطين الساحلية انك تستطيع ان تحفر في بعض هذه المناطق بيديك، وعلى مدى اشبار قليلة، لتنفجر أمام ناظريك عيون الماء، ولا غرابة إذا ما غرزت قدمك أو حافر دابتك ان تنفجر من بعدها عين ماء قراح... إن الماء في هذه الأرض غزير وغير بعيد الغور... وهكذا كانت مواهب حسن البحيري... غزيرة وقريبة الغور... مثل الكثير من ينابيع الساحل في فلسطين فلم تكن تحتاج إلى جهد كبير او متعمد او منظم كي تنفجر. ولكم لفتت مواهب الصبي المشرد أنظار مدرسيه في مدرسته الأولى[٣] وأنظار الممرضات الأجنبيات في مستشفى يافا، فكن يتنازعن بسببه، أيهن تصطحبه الى بلدها... الفرنسيات او الانكليزيات تمهيدا لتنصيره[٤].

وسواء وضعت أم حسن حملها مع وضع الحرب العالمية الأولى أوزارها عام ١٩١٨، أم عقب ذلك بسنوات، أي عام ١٩٢١، فان في ما نقرؤه له من قصائد قوية مؤرخة في عام ١٩٣٦[٥]، عام الثورة الشعبية في فلسطين، الدليل الواضح على نضج مواهب الفتى وتفجرها المبكر. كأني به كان في باطنه يضج بينابيع الموسيقى واللحن والنغم، كالعصفور يغرد بفطرته، فتفيض حنجرته بالألحان والأنغام! فهل لو لم يتفتح البحيري على نعمة الحرف هذا التفتح البسيط كان من الممكن ان يصبح شاعراً؟ ربما كان ذلك مرجحاً، ولكن هذا التفتح البسيط فتح أمامه عوالم اللغة وآفاق الأدب والشعر فتخلق فيه «الشاعر الفصيح» منذ راح يصيح، وراحت مواهبه تتبلور وتزهر.

وحسن يحفظ جل شعره، حتى أقدم هذا الشعر، وليس كل الشعراء يشبهونه في ذلك، كما أنه يحفظ الكثير من شعر الأقدمين. وذلك إن دل على شيء، فانما يدل على حافظة قوية يتمتع بها. وكانت هذه الحافظة، تدعمها مواهبه الفنية وأذنه الموسيقية المرهفة، وحساسيته الحادة، عدَّته في إخصاب نفسه واغناء ثقافته التراثية، مما أصّل لغته وأثرى معجمه. واذا لاحظنا الفترة الزمنية المبكرة التي نُقدّر ان مواهبه بدأت تتفتح

---

* ترجم كتاب «اوسكار وايلد»، وهو قصص مترجمة عن الانكليزية نشر دار اليقظة العربية بدمشق، طبع مطبعة دمشق عام ١٩٥٣.